الرؤية النقدية في أدب ابن شهيد الاندلسي
(ت٤٢٦هـ)

م.م خلف محمود حسين
جامعة تكريت – كلية التربية – قسم اللغة العربية

المقدمة

لنقف قليلاً عند معنى النقد أذ قسمه دارسو الادب على قسمين ادب انشائي وادب وصفي ،فأما الادب الانشائي فهو مايكتبه الشاعر او القاص او الروائي ،يصور فيه تجربه او يعكس موقفاً معيناً.اذا يتولد لديه احساس بلغه مؤثرة ، ويهدف من كل هذا اثارة العواطف ونقل التجربة وامتاع النفس . لهذا من يقرأ الادب الانشائي يعجب به ثم يفسر هذا الاعجاب ، ولكن قد يكتشف ان هذا النص الذي قرأه لايستحق الاعجاب لان فيه عيوباً قد تتصل بلغته او معانيه او صوره ، والقارئ في كلا الموقفين موقف الاعجاب وموقف الاستهجان ناقد بشكل او بأخر وهذا هو الادب الوصفي .

لقد نشأ النقد مع الادب او بعده بقليل ونقول معه لان الاديب نفسه يمكن ان يكون ناقد لعمله وهو ينشأ النص فيقومه ويعدله ويستبدل كلمة بأخرى ويقدم بيتاً على اخر او فقره على اخرى كما فعل زهيربن ابي سلمى والحطيئه اذ تبقى القصيدة حولاً كاملاً يعود اليها بين الحين والاخر يعدل او يغير فهو على هذا النحو يعد ناقداً لعمله .

وقد فسر لنا اصحاب المعجمات مثل لسان العرب وتاج العروس كلمة (نقد) فوجدوها تعني تميز الدراهم واخراج الزائف منها ، ولذلك شبه العرب الناقد بالصيرفي فكما يستطيع الصيرفي ان يميز الدراهم الصحيح من الزائف كذلك يستطيع الناقد ان يميز النص الجيد من الرديء.(١)

وقد عرف قدامة بن جعفر النقد بأنه (علم تخليص جيد الشعر من رديئه)(٢)

واشار ابن سلام في كتابه (طبقات فحول الشعراء) عندما قال (وللشعر صناعة وثقافة يعرفها اهل العلم بها كسائر اصناف العلم والصناعات) (٣)

وقال ابن رشيق القيرواني (وقد يميز الشعر من لايقوله كالبزاز يميز من الثياب ما لا ينسجها والصيرفي من الدنانير ما لم يسبكه ولا ضربه)(٤)

تطور النقد الادبي في الاندلس

الواقع ان البدايه الحقيقية للادب العربي في الاندلس تنطلق بأنطلاق عبد الرحمن الداخل اليها واما ما قيل قبل ذلك فيعد محاولات اولية قلقة لاتوجد ضروره حتميه لذكرها الا اذا كان من السرد التاريخي فقط ، حتى ان الحقبة الزمانية التي عاشها عبد الرحمن الداخل في الاندلس تعد في حد ذاتها حقبه حافله بالاحداث والحروب طمعاً في السيطرة على البلاد والقضاء على الفتن والثورات(٥) ثم بعد ذلك اخذ الادب في عصر بني اميه يتطور وتتسع آفاقه مع تطور الايام لاسيما وانه قد تأثر بكثير من المذاهب الادبيه القائمة في المشرق نضراً للتبادل العلمي والثقافي بين البلدين حتى اذا وجدنا مؤلف مثل ابن عبد ربه يكتب عن كثير من ادباء المشرق متجاوز ادباء بلاده ،مما اثار دهشه الحارث ابن عباد فقال قولته المشهورة ((هذه بضاعتنا ردت الينا))(٦)

وفي الحقيقة انني لا اتفق مع كثير من النقاد في هذا الخصوص فابن عبد ربه وان تحدث عن ادباء المشرق الا اننا نلمس الروح الاندلسيه في كثير من احكامه وتعليقاته بل حتى في منهجه الشاعري الذي قسمه به كتابه فجعله عقداً تتلألأ جواهره على نحر فتاة طروب .

ولا تعد الحقيقة اذا قلنا ان القضايا النقدية الهامه التي اثارت اهتمام النقاد المشرقيين وجدت لها مرتعاً خصباً في الاندلس ،فمثلاً الاختلاف حول اللفظ والمعنى ،والطبع والصنعه،والسرقات الشعرية ،وبناء القصيدة، والبيان ولالهام الشعري ، والمعارضات الشعرية وغيرها من القضايا التي طرقها كثير من النقاد فتناولها بالبحث والدراسة نجدها قد عولجت في الاندلس بشكل قد يتفق وقد لايتفق مع ادباء المشرق ونقادهم .

النقد عند ابن شهُيد الاندلسي (ت٤٢٦هـ)

هو احمد بن ابي مروان عبد الملك بن احمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد ابن شهُيد بن عيسى الوضاح الاشجعي ،وقد سمي احمد على اسم جده وكنيته

(ابو عامر)من اسرة شامية استقرة في اسبانيا في حكم عبد الرحمن الاول

(١٣٨هـ-١٧٢هـ)(٧)

وعندما نتحدث عن هذا الشاعر وعن ارائه النقدية انما نتحدث عن احد اقطاب النقد الادبي في الاندلس ، بل عن البنية الحقيقية للشخصية الاندلسية في مجال النقد الادبي ، اذ هو وصديقه ابن حزم كون الاساس القوي والقاعدة المتينة لكثير من الدراسات الادبيه التي تمرس بها النقاد الاندلسيون فيما بعد (٨)

ولشاعرنا لمحات نقدية ثاقبة ونظرات جديدة في هذا الميدان على الرغم من انها جاءت كفقرات من رسائل ولم تأت على شكل كتاب مستقل مبوب ، لذلك عندما يتحدث عن (الملكة

الادبية) التي سماها الطبع ، والتي يدونها لايمكن للأديب ان يقدم ادباً ذا قيمة مهما استوفى مسائل النحو وحفظ الغريب وبين ان الملكة يجب ان تقوى بالثقافة اللغوية والادبية .

وتحدث عن طبيعة هذه الملكة وحظ الناس منها ، فبين ان الانسان مركب من جسم ونفس ، وان قدر الملكة الفنية يكون على قدر علاقة النفس بالجسم ، فمن غلبت نفسه على جسمه كان مطبوعاً ذا ملكة فنية ، ومن غلبه جسمه على نفسه كان مصنوعاً فقيراً من الملكة . وقد وضح ابن شهُيد اثر هذه الملكة في العمل الادبي فبين انها تهب الاديب قوة التأثير والايحاء وتمنحه روحاً لايدري سرها ولايعرف مصدرها ولكنه معها يتعلق بالنفس بما له من قوه تأثر لابما له من ديباجه،ويستولي على القلب بما فيه من ايحاء لا بما فيه من غريب .(٩)

كذلك يبحث في طبيعة علم الجمال ، ينتهي منه اخيراً الى القول بأن طبيعة الجمال غير قابلة للتحليل فيقول ((واصابة البيان لا يقوم بها حفظ كثير الغريب ، واستيفاء مسائل النحو ،بل بالطبع مع وزنه من هذين ، ومقدار طبع الانسان انما يكون على مقدار تركيب نفسه من جسمه ، فمن كانت نفسه في اصل تركيبه مستوليه على جسمه ،كان مطبوعاً روحانياً ،يطلع صور الكلام والمعاني في اجمل هيئاتها واروق لباساتها، ومن كان جسمه مستولياً على نفسه من اصل تركيبه والغالب على حسه ، كان مايطلع من تلك الصور ناقصاً من الدرجة الاولى في الكمال والتمام ،وحسن الرونق والنظام ،صور رائقة من الكلام تملأ القلوب وتشغف النفوس . فأذا فتشت لحنها اصلاً لم تجده ولجمال تركيبها اساً لم تعرفه ، وهذا هو الغريب ان يتركب الحسن من غير حسن ، كقول امرىء القيس))

((الاَ عِم صباحاً أُيها الطلُل البالي))(١٠)

وقوله :

تنورتُها من اذرعات وأهلُها بَيثرب ادنى دارِها نظرٌ عالي

فان هذه الديباجة إذا تطلبت لها اصلاً من غريب معنى لم تجده. وكقول ابي نواس:

طرحتم من الترحال ذكراً فغمـــــنا فلو قد شخصتم صَبّح الموتُ بَعضنا

سأشكوالى الفضل بن يحيى بن خـالد هواك لعلً الفـضل يجمـــع بينـنا

هذا من الكلام الغث واللفض الرث ، الذي لو رامه حمار الكساح لادركه ، ولكن له من التعلق بالنفس والاستيلاء على القلب ماترى .

ثم يتحدث ابن شهيد عن اثر البيئه والظروف السياسية والاجتماعية في الاذواق والملكات وبالتالي في النتاج الادبي . وبين ان افساد الازمنه ونبو الامكنة وأنتشار الفتن تجعل الفهم سلعة بائرة والفن صفقة خاسرة وفي ذلك يقول ((لا كقوم عندنا حظهم من الفهم الحفظ ، ومن العلم الذكر . وهذا حظ القُصاص واعلى مراتب النواح فترى الممخرق منهم إذا قرئ عليه

الشعر يزوي انفه ، ويكسر طرفه . واذا عرضت عليه الخطبة يميل شقه ، ويلوي شـــدقه .. وأصل قلة هذا الشأن وعدم البيان ، فساد الازمنة ونبو الامكنة .. وان الفتنة نسخ للأشياء من العلوم والاهواء ، ترى فيها الفهم بائر السلعة خاسر الصفقة يلمح بأعين الشنان ويستثقل بكـــل مكان))(١٢) .

ويتكلم عن تطور الاساليب بتطور الازمنة واختلافها باختلاف الامكنة ((وكما أن لكل مقـــام مقالاً ، فكذلك لكل عصر بيان ، ولكل دهر كلام ، ولكل طائفة من الامم المتعاقبة نـــوع مـــن الخطابة وضرب من البلاغة ، لا يوافقها غيره ولا تهش لسواه(١٣) .

كذلك تعرض ابن شُهيد إلى نقد الشعر فمدد موقفه من اللفظ والمعنى فأدرك الصورة الادبيـــة التي تعد النتيجة النهائية لكل من اللفظ والمعنى وبين انهما يشتركان فـــي ابرازهمـــا وان أي تأثير على احدهما يؤثر على كمال تلك الصورة ونوه بنظرية النظم مما يدل على انها متبلورة في ذهنه وانه كان مستوعباً لها وبذلك يكون سابقاً لعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـــ) فـــي فهم هذه النظرية التي اطلق عليها ((حسن النظام)) وكما ترى ان التسمية قريبة من بعضها .

ومن المؤكد ان نظرية النظم لم تنفجر انفجارا على يد عبدالقاهر الجرجاني فلا بد ان يكون قد افاد من ملاحظات سابقية واشاراتهم إن لم يكن اخذ الفكرة نفسها فحاول ان يبسط فيها القـــول اكثر ممن سبقه ولكن يبقى الفضل راجعاً إلى من فتح أمامه مصاريع هذه الابواب من النقـــاد السابقين وخاصة عبدالله محمد بن زيد الواسطي المتكلم (ت٣٠٧هـــ) والذي ألف كتاباً سماه ((أعجاز القرآن في نظمه)) واقام فلسفته على اساس نظرية النظم (١٤) .

وفي هذا يقول ابن شُهيد ((ومن الواجب على الناقد أن يبحث عن الكلام ويفتش عن شـــرف المعاني . وينظر مواقع البيان . ويحترس من حلاوة خداع اللفظ . ويدع تزويق التركيـــب . ويراطل بين انواع البديع . ويمثل اشخاص الصناعة .. ثم يقول ان للحروف انساباً وقرابات تبدو في الكلمات . فاذا جاوز النسيب النسيب ومازج القريب القريب طابت الالفـــة وحـــسنت الصحية ، وإذا ركبت صور الكلام من تلك ، حسنت المناظر وطابت المخابر . وكما نختـــار مليح اللفظ ورشيق الكلام فكذلك يجب ان تختار مليح النحو وفصيح الغريـــب وتَهـــربُ مـــن قبيحه))(١٥) .

ثم يتحدث عن الوحدة الفنية فذكر انه على من يتعرض لمعالجة موضوع ان يستوفي جوانبـــه أولاً وألا يخرج عما هو يسيله ثانياً وفي ذلك يقول ((ومما يلزم المدعي لصناعة الكـــلام إذا اعتمد وصف حاله ان يستوفي جميعها ويكون ما يطلبه من الابداع والاختراع فيها غير خارج عنها وما هو بسبيلها (١٦) .

ومن احسن ما أثر عن ابن شُهيد من كتابات نقدية ، حَديثه ، عن وضائف بعض الاعضاء في القدرة الادبية وصلات الهيئة الانسانية بالملكة الفنية ووجود علامات عضوية تدل على عـــدم هذه المكلة أو تصاتها . وفي ذلك يقول ابن شُهيد في بعض ادعياء الفن من معلمي قرطبة .

((فهذه حال العصابة من المعلمين . يدركون بالطبيعة ، ويقصرون بالآلة ، وتقصيرهم بالآلة هو عن طريق العلل الداخلة من فساد الآلة القابلة للروحانية ، والخادمة لآلات الفهم ، الباغثة لرقيق الدم في الشريانات إلى القلب وزيادة غلظ اعصاب الدماغ ونقصانها عن القدر الطبيعي ومما يعين على ذلك بالحدس وطريق الفراسة ، وفساد الآلة الظاهرة كفرطحة الرأس وتسفيطه ، ونتوء القمحودة والتواء الشدق وخرز العين ، وغلظ الانف ، وانزوء الارنبة))(١٧) .

ويقصد بالقمحودة : مؤخرة عظم الرأس المشرف على القفا .

كذلك يوكد على صفات الكتاب المشتغلين مع الحكام فيقول فيهم

((ولذلك استحسنوا من الكاتب ان يكون طيب الرائحة ، سليم الآت الحواس ، نقي الثـــوب ، ولا يكون وسخ الضرس ، منقلب الشفة مكحل الاضفور وضر الطوق))(١٨) .

وأكد على الطبع والصنعة ففهم الطبع كما فهمه الجاهليون وهو الاستعداد الفطري دون اعادة النظر ، وكان يؤيد الصنعة المعتدلة التي تقبلها النفس فلا تكون خارجة عن حدود المعقـــول ، لذلك انكر على ابن تمام اسرافه في التجنيس وافراطه في ذلك .

وذكر شاعرنا البيئة ومدى تأثيرها على الاديب وأهميتها في تكوينه الخلقي وأثرها في انتاجه الادبي .

وله رأي في الحرب يختلف عن رأي (ابن سلام الجمحي _ت٢٣١هـــ)الذي قال فـــي كتابـــه ((طبقات فحول الشعراء)) ان الشعر يكثر مع الحروب لانه منشط لطبيعة تلك الحروب التي يتحدث عنها . ولكن ابن شهيد قال انها تقضي على الادب والأدباء وتقف في وجـــه الحركـــه العلمية متذكراً الحرب التي دارت في قرطبة وضربت الزهراء والزاهره

وقرطبة اذا استشرى في تلك الحرب القتال والدمار وضاع العلم وأهله . فهي لها وقع مـــؤلم في نفس ابن شهيد وذكرها كثيراً في قصائده وأخيراً هرب من قرطبة والف رســـاله التوابـــع والزوابع))عندما لم يجد احداً يحكم على ادبه.

وله موقف من النحو ويقول عنه هو الوسيلة التي تؤدي الى سلامة التركيب الذي يتم بـــه التوصل الى اكتمال البيان .

ثم وجه بعض النصائح التي تفيد الناقد في حكمه على النص الادبي بأن ينظر أولاً الى الافاظ والمعاني لانهما الحجر الاساسي لكل نص ثم يفتش بعد ذلك عن البديع فيكون اكثر حرصاً في اصدار الاحكام النقدية . ويؤكد على ثقافة الشاعر وأقتداره على اللغة وأقتناص الافاظ.

وأكد على اصحاب البيان وأهل الموهبة وقسم الى ثلاث طبقات

١-من لديه موهبة ولكن قصير الباع.

٢- من لديه الموهبة وطول النفس .

٣- قليل الموهبة لكن لديه ذكاء يغطي به على ذلك النص

وهذا التقسيم جديد في عالم النقد من ابتكارات ابن شهيد الشاعر والناقد البليغ

كذلك نجد عند ابن شهيد نزعة تحررية انكر فيها على الشاعر التزامه بالمقدمة الطللية الى الحد الذي ينسيه الغرض الاساسي من انشاء القصيدة ، وهي دعوة فنيه في شكلها ومضمونها تختلف عن الدعوات التزمتية التي اشربت بعض الاغراض والاتجاهات المعينة فأضاعت بين ثناياها خدمة النص من الناحية الفنية .

اما المعارضات الشعرية فيرى ابن شهيد انها تعد نوعاً من التفوق ، لان الشاعر المجيد هو الذي يستطيع ان يعارض قصائد الشعراء السابقين ويناقضهم وهو راي تفرد به ابن شهيد ،ولا اعتقد ان الحظ حالفه فيه كثيراً .

لان القضية تخضع لعوامل فنية ومقاييس نقدية بصرف النظر عن بقية الاعتبارات ، فليس من الضروره بمكان ان يكون المعارض متفوقاً على من سبقه من الشعراء الذين عارض شعرهم .

وقد ابدى شاعرنا شيء من الوعي الذاتي وأبرز حركة النقد وأنتزعه من حلقات المؤدبين ، وبعد هذا كتب ابن شهيد كتابه المشهورى ((حانوت عطار)) وترجمه فيه مقدرته النقدية لشعراء معاصرين له ولا تخلو نظراته في هذا الكتاب من بصر نافذ بالشعر حسب مقياسه النقدية . ثم الف كتاب اخر في النقد سماه ((كشف الدك وايضاح الشك)) وكلاهما فقدا اثناء الحروب والفتن في الاندلس.(١٩)

اثاره الادبية

توفي ابن شهيد سنه ٤٢٦هـ وترك لنا أثار أدبية منها فقد ومنها عثر عليه بين بطون الكتب ومنها ,

١- ((كتاب كشف الدك وأيضاح الشك)) وقد ضاع هذا الكتاب برمته ، والدك :هو الحيل والشعوذه (٢٠)

٢- كتاب ((حانوت عطار)) وهو مفقود ايضاً الا اننا نجد منه بعض النصوص في جذوة المقتبس ((للحميدي ((والمغرب)) لابن سعيد وأحكام صنعة الكلام للكلاعي . وهو كتاب نقدي

٣- رسالة ((التوابع والزوابع)) وهو العمل الذي اكسب ابن شهيد شهره كبيرة في الوسط الادبي . وهذه الرسالة غنية بالملاحظات والاراء النقدية الهادفة التي تدل على مدى تمكن ابن شهيد ورسوخ قدمه في هذا الميدان .

٤- ((الرسائل النقدية)) وتعد اهم عمل قام به ابن شهيد لان فيها أراء جديدة واستنتاجات مبتكره . وهي موجودة بكثرة في كتاب الذخيرة لابن بسام .

٥- ((الرسائل الادبيه)) وهي رسائل ابن شهيد التي يصف بها البرد والنار ويصف الحلوى والبرغوث والماء والثعلب والبعوضة الى غير ذلك.

٦- ((ديوان ابن شهيد)) جمعه وحققه الاستاذ يعقوب زكي وجمعه ايضاً ((شارل بلات)) عام١٩٦٣م . ولا شك ان ابن شهيد شاعر مجيد استطاع ان يكون في مصاف كبار الشعراء الاندلسيين الذين فاخر بهم ابن حزم الاندلسي في رسالته المشهورة .

الهوامش

١- ينظر محاضرات في تأريخ النقد عند العرب /٧

٢- نقد الشعر / قدامة بن جعفر :٩.

٣- طبقات فحول الشعراء / ابن سلام :٣.

٤- العمدة في محسان الشعر وآدبه ونقده / ابن رشيق : ٩٧.

٥- الحلة السيراء / ابن الابار :٣٥.

٦- الذخيره في محاسن اهل الجزيره / ابن بسام الشنتريني ق١م١ :٢٨٢ .

٧- مقدمة ديوان ابن شهيد :٥.

٨- تاريخ النقد العربي عند العرب / د. احسان عباس :٤٧٥.

٩- ينظر الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة / د. احمد هيكل :٣٩١.

١٠- مقدمة ديوان ابن شهيد : ٧٠ .

١١- ينظر الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة / د. احمد هيكل:٣٩٢ .

١٢- الذخيرة ق١ م١ / ابن بسام :١٩٧ .

١٣- الذخيرة ق١ م١ / ابن يسام :٢٠٢ .

١٤- البيان العربي / د. بدوي طبانه : ١٦٥ .

١٥- الذخيرة / ق١ م١ / ابن بسام :٢٦٥.

١٦- م. ن /٢٧٣ .

١٧- م. ن / ٢٠٥ .

١٨- م.ن /٢٠٨ .

١٩- ينظر تأريخ الادب الاندلسي (عصر سيادة قرطبة) /د. احسان عباس :١٨١.

٢٠- كشف الظنون / حاجي خليفه :ج١ /١٤٨٩.